مكتبة البنين
قسم الدوريات

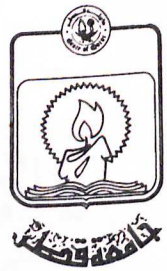

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مسموح بـ... من المكتبة

العدد الرابع عشر

١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

الشعر العربي في أزمة الخليج *

أ. د. ماهر حسن فهمي
استاذ بقسم اللغة العربية

ـ هل يمكن أن نستبعد من دائرة الفن الخالد كل أشعار المناسبات؟ وهل نعتبر ما يقال في أزمة الخليج هو من شعر المناسبات؟

ـ لماذا يلجأ شعراء الشعر الحر الى الاتجاه العمودي في المناسبات، ولماذا لا يلجأ شعراء الشعر العمودي إلى الشعر الحر؟

ـ هل يمكن للشعر أن يعرض لقضايا الفكر في وطننا العربي وهو ما يزال مغروسا في الأزمة؟ وأي طريق يسلك؟

ـ وهل يمكن أن نساوي بين الأديب المناضل والأديب المشاهد؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن نساوي على سبيل المثال بين المتنبي وأبي تمام في وصف المعارك؟ لقد كان المتنبي يشارك في معارك سيف الدولة بسلاحه ثم يصف المعركة ولم يكن أبوتمام يشترك فيها، وكلاهما شاعر كبير. ولذلك يمكن أن نتساءل: أين الصدق الفني في شعر اليوم؟

يعتبر الشعر الذي قيل في أزمة الخليج حتى الآن، من «شعر المناسبات»، فالأزمة ما زالت على أشدها، وأغلب الذين كتبوا، كتبوا أكثر من قصيدة في أوقات متقاربة مثل سعاد الصباح وغازي القصيبي وعلي بن سعود آل ثاني وسواهم. على أن قضية شعر المناسبات قد تراجعت منذ فترة حين ناقشها د. مندور في كتابه «في الميزان الجديد»، وكان العقاد يصف شعر شوقي بأنه شعر مناسبات ولذلك فهو شعر لا يبقى إلا ببقاء المناسبة، وناقش مندور أبعاد القضية وخرج بأن القضية ليست قضية شعر مناسبات، ولكنها قضية الشاعر الكبير الذي يستطيع أن يخرج من إطار المناسبة الضيق إلى رحابة الموقف الانساني مثلما صنع ميخائيل نعيمة في قصيدته «أخي» التي قالها بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الأولى ويقول فيها (١):

(*) كتب هذا البحث في فبراير ١٩٩١.

(١) في الميزان الجديد ص ٥٠.

أخي ان ضج بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تهزأ بمن دانا
بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

فلا نحن من المنتصرين ولا من المنهزمين، لسنا في العير ولا في النفير، فليس لنا أن نفرح ولا أن نحزن، وإنما لنا أن نخشع أمام الموت من الطرفين ومنا أيضا، لأن الموت ارتوى من دماء البشر جميعا، ولذلك بدأ بكلمة «أخي»، فالأخوة في الإنسانية هي ما يجمعنا، على الرغم مما بيننا من فروق في اللون، والدين، والقوة، والضعف. وتستمر القصيدة على هذا النحو تتخطى حدود المناسبة إلى الموقف الإنساني العام.

وكذلك كان الشأن في شعر الحرب عند المتنبي، فقد حول القصيدة من وصف المعركة إلى موقف عربي، موقف الفارس الذي يذود عن العرب اللاهين، ولو انحرف عن طريق الروم قليلا لوصلوا إلى كل مكان، بل إن جزءا من الأمة نفسها يكيد لبطلها كما يكيد له الروم:

ما الذي عنده تدور المنايا ... كالذي عنده تدار الشمول
وسوى الروم خلف ظهرك روم ... فعلى اي جانبيك تميل
لو تحرفت عن طريق الأعادي ... ربط السد خيلهم والنخيل

وقضية الشعر الحر والشعر العمودي تعتبر أيضا من القضايا التي أغلقت ملفاتها، فنحن نستحسن الشعر الجيد من كلا اللونين، والمقصود بالشعر الجيد، الشعر الذي يستجيده المتذوق على ضوء امتلاك الشاعر لادواته الفنية، وتعبيره عن الصراع الداخلي من أجل اعادة تكوين الحياة بصورة أسمى، واذا كان النقاد يضيفون قيما أخرى كالبنية العضوية والصورة الشعرية، فإن المتذوق عادة ما يكتفي بالصدق الفني الذي ينتقل من المبدع إلى المتلقي عن طريق ما يسمى أحيانا بنظرية العدوى، فيؤثر في السامع تأثيرا

انفعاليا من غير روية كما يقول عبدالقاهر الجرجاني.

وهذه الفقرة المركزة ربما تحتاج إلى شيء من التفصيل في بعض الجوانب، فالمقصود بالأدوات الفنية هي اللغة ودلالاتها واكتنازها وإيحاءاتها او رمزيتها، وفي المقابل المباشرة والتقرير والنثرية.

فمن الواضح أن قول الشاعر الهذلي (وإذا المنية أنشبت أظفارها، ألفيت كل تميمة لا تنفع) يختلف عن قول أبي العتاهية (مات والله سعيد بن وهب، رحم الله سعيدا بن وهب) فالخيال المتوهج في البيت الأول يختلف عن التعبير التقريري في البيت الثاني وهذا يقودنا إلى قيمة الاستعارة في الشعر، بل قد يقودنا إلى نظرية النظم كلها.

ومن الواضح أن قول الرصافي في الفتاة البائسة:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

يختلف عن قول بدر شاكر السياب في «العمياء» (١):

ويح العراق، أكان عدلا فيه أنك تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمنا لملء يديك زيتا من منابعه الغزيرة

كي يبصر المصباح بالنور الذي لا تنظرين

الأول حكاية، والثاني بناء درامي فيه الصراع وإن كان لا يتطور، وفيه السؤال الذي يدفعنا إلى التفكير بعد أن تهدأ انفعالاتنا، وفيه الموسيقى التعبيرية بدلا من الموسيقى التطريبية. وإذا كنا نستجيد مطولة «العمياء» لبدر شاكر السياب، فإنا نستجيد أيضا من الشعر الحر مطولات أخرى مثل «رسالة من أب مصري إلى الرئيس ترومان» لعبدالرحمن الشرقاوي ومطولة «لا تصالح» لأمل دنقل، و«هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني، و«بعد سنة» لغازي القصيبي وهي في النكسة أيضا، وربما كان نزار أكثرهم

---

(١) الديوان، ص ٥٠٩.

مطولات مثل «ملاحظات في زمن الحب والحرب» و«منشورات فدائية على جدران اسرائيل» و«الخطاب» و«قصيدة اعتذار لابي تمام» وسواها.

وليس معنى ذلك أن الشعر الحر كله على هذا النحو، فيكفي أن نقرأ شيئا من «التصريح الأخير للناطق الرسمي باسم نفسه «لحبيب الصايغ» حين يقول في القصيدة الأولى: «هو لا يختفي في الأنا، ونحيط به نحن، نمسك أطراف أسمائه، خلسة، فجأة، صدفة، لفظة، حولنا، حوله نحن والامتدادات تبدأ في الانحناءات، تبدأ فيها ولا تنتهي». حتى ندرك أن خللا ما يصيب القصيدة الحرة، سببه الاستغلاق لا الغموض، كما أن خللا ما يمكن أن يصيب القصيدة العمودية يرجع إلى المباشرة.

ويتصل بموضوعنا مفهوم الاديب المناضل والاديب المشاهد. إن التاريخ يمنحنا هذا المثال، حين كان المتنبي يحارب الروم إلى جوار سيف الدولة بسيفه، ثم يعود ليحاربهم بقلمه فيتناول المعركة، ويصور النصر أو يعتذر عن الهزيمة، ورومياته في مجموعها تعتبر أروع شعر عربي خلد بطولة المعارك مع الدولة الرومانية كما يقول زكي المحاسني في دراسته عن «شعر الحرب في الادب العربي». ولم يكن أبوتمام رجل سيف، ولم يكن يشترك في المعارك الحربية، بل كان شاعرا ورجل قلم. وإذا كان المتنبي قد عاش في القرن الرابع، فقد عاش أبوتمام في القرن الثالث، وكانت معارك العرب والروم مشهورة أيضا، وكلنا نعرف قصيدة أبي تمام التي قالها في فتح «عمورية» حين صاحت امرأة من العرب «وامعتصماه» في مدينة زبطرة في الثغور، فقام المعتصم قائلا: لبيك، وجهز جيشه على وجه السرعة واندفع يقوده حتى كانت المعركة التي تحدث عنها أبوتمام في قصيدته التي تقع في سبعين بيتا ويقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

غادرت فيها بهيم الليل وهو وضحى ... يقله وسطها صبح من اللهب

لبيت صوتا زبطريا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقد حاولت الموازنة بينها وبين قصيدة المتنبي في موقف مشابه وهو معركة «الحدث»[1] وعلى الرغم من إعجابي الشديد بالمتنبي وعلى الأخص في هذه القصيدة التي أراها حققت الوحدة الضوية المركبة ببداية كالنشيد، ثم المعركة كأنك تراها، ثم تعقيب كترديد الجوقة، كأنما تأثر بتلخيص الفارابي لفن الشعر لأرسطو، والتي يقول المتنبي فيها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم
فللّه وقت ذوب الغش ناره ... فلم يبق إلا صارم أو ضبارم
وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

لم أستطع أن أحكم لأحدهما على الآخر، لأن قصيدة أبي تمام بما فيها من صدق فني استطاعت أن تعوض صدق الواقع، والصدق الفني بتعبير مختصر هو صدق الانفعال الذي يحرك الخيال، ويدفعه إلى تركيب الصور، وغالبا ما تقوم صورة بالسيطرة على بقية الصور وصهرها حتى تخرج قادرة على التأثير والبقاء من غربال الزمن في ضوء إمكانات الشاعر وقدراته الفنية، فنرى النضال بالكلمة مساويا للنضال بالسيف.

كان الهم العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية هو البحث عن المخلص، فكل الدول العربية ـ مع استثناءات قليلة ـ لا تزال محتلة، سواء أكان هذا المخلص في صورة فرد أو في صورة دولة عربية.

وكان عبدالناصر منذ كسر احتكار السلاح ووقع وثيقة جلاء البريطانيين عن مصر

---

(١) الديوان، ص ٢٩٠.

وأمم قناة السويس وأنشأ السد العالي، وتصدى للعدوان الثلاثي، ودعم الثورة الجزائرية، وأقام الوحدة مع سوريا، هو المخلص في نظر الجموع العربية. لم تلتف الأمة حول شخص كما التفت حوله، كأنما جسم طموحات عربية موءودة، ولذلك عندما مات لم يرثه الشعراء رثاء كبير مات، ولكنه رثاء أمل لمع ثم انطفأ. يقول نزار قباني:

«قتلناك ليس جديدا علينا اغتيال الصحابة والأولياء، فتاريخنا كله محنة، وأيامنا كلها كربلا. نزلت علينا كتابا جميلا، ولكننا لا نجيد القراءة، تركناك في شمس سيناء وحدك، تكلم ربك في الطور وحدك. قتلناك نحن بكلتا يدينا وقلنا المنية. لماذا قبلت المجيء إلينا، فمثلك كان كثيرا علينا. سقيناك سم العروبة حتى شبعت، رميناك في نار عمان حتى احترقت، لماذا ظهرت بأرض النفاق لماذا ظهرت؟ وراء الجنازة سارت قريش، فهذا هشام وهذا زياد، وهذا يريق الدموع عليك وخنجره تحت ثوب الحداد».

ثم توالت الأحداث بعد حرب ١٩٧٣ فوقعت معاهدة «كامب ديفيد» وأبعدت مصر عن الساحة العربية، وكأنما حدث خلل في توازن القوى، حرب بين العراق وايران في المشرق، وحرب الصحراء في المغرب، وحرب بين ليبيا وتشاد، وحرب في جنوب السودان والحرب الاهلية في لبنان تزداد ضراوة فكل القوى تحارب كل القوى، وخرجت المنظمة من لبنان كما خرجت من قبل من الاردن، خرجت إلى تونس حيث نقلت إليها الجامعة العربية. ولكن اكبر هذه المعارك كانت بين العراق وايران، فالعراق يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي، ولذلك عندما طلب العراق السلاح والرجال سارعت مصر برغم القطيعة السياسية إلى مده بما يريد، كما أمدته دول الخليج بالمال ليصمد. وصمد العراق في حرب استمرت ثماني سنوات، عرض الصلح خلالها على إيران أكثر من مرة فأبت لأنه البادىء بالعدوان، حتى إذا يئست ايران من النصر، أعلنت قبولها للصلح. وخرج العراق قويا عسكريا، ضعيفا اقتصاديا، ولكنه كان في نظر الانسان العربي، حين هدد اسرائيل بحرق نصفها، المخلص الجديد.

كان العراق في نظر الكثيرين، مهيأ لدور الريادة فهو يملك البترول ويملك الثروة المائية والأراضي الزراعية، ويملك القوة العسكرية، ولكنه استنزف موارده في حرب السنوات الثماني دون طائل، فلم يكن توازن القوى يسمح بأن ينتصر أحد الطرفين على

الآخر انتصارا حاسما، حتى لا يهدد الخليج الذي يمثل بتروله للغرب عصب الصناعة ودماء الحياة التي ينبغي ان تتدفق إلى شرايين الغرب بأسعار تدور حول المعدل الموجود اليوم، وأمامه نصف قرن حتى يأخذ في النضوب أو يصل العلماء إلى البديل في صورة الطاقة الذرية بأسلوب مأمون. ولكن العراق لم يكد يخرج من مغامرته الأولى قويا عسكريا ضعيفا اقتصاديا، حتى دخل مغامرة أخرى غير محسوبة ظنا منه أنها الحل الأمثل للمشكلة الاقتصادية فاحتل الكويت، وهنا قامت الدنيا ولم تقعد لا لأنه ابتلع دولة في الجامعة العربية وعضوا في الأمم المتحدة وحسب، ولا لأنه ارتكب من الأهوال في الكويت ما فاق كل حد دون مبرر فقط، ولكن لأنه أخل بالتوازن الدولي مرة أخرى وأصبح يسيطر على ربع احتياطي بترول العالم من ناحية، ويهدد أمن الخليج كله من ناحية أخرى.

وإذا كان هم المثقف هو صناعة المواقف في صفوف الرأي العام، فيحسن الوقوف، امام بعض المحاور. عام ١٩٨١ صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية دراسة ميدانية عنوانها «اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة». والخلاصة التي وصلت إليها الدراسة الميدانية بعد تحديد المفاهيم الإحصائية، وموضواع العينات والرأي العام والبعد الطبقي في الدراسة، ثم رؤساء الفرق القطرية الميدانية وكلهم أساتذة في الجامعات، ثم تحديد فريق تحليل المضمون باشراف سيد يس مدير مركز الدراسات السياسية بالأهرام، وتصوير المصاعب الهائلة التي اعترت صدور الدراسة المليئة بالإحصائيات والرسوم البيانية، عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف.

«يظل أمل الوحدة العربية قويا عارما بين الأغلبية العظمى، ولكن هذا المطلب يتصف في الوقت الحاضر بكثير من الواقعية والعقلانية. وقد عبرت أغلبية الرأي العام العربي عن تفضيلها لتوحيد سياسي فيدرالي، يحتفظ فيه كل قطر باستقلاله الداخلي، وتصريف شؤونه المحلية، مع وجود حكومة مركزية تضطلع بمهام الدفاع والسياسة الخارجية والتنسيق بين الاقطار في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وقد أظهرت الأغلبية الساحقة تفضيلها لاتمام الوحدة بالطرق السلمية الديمقراطية، سواء أكانت وحدة جزئية بين قطرين أو أكثر أم وحدة شاملة، وكان رفضها لاستخدام العنف

العسكري لتحقيق الوحدة رفضا جازما. والرأي العام العربي يدرك الوحدة الآن ليس فقط كسبيل للقوة والمنعة ضد محاولات الهيمن، وإنما ايضا كوسيلة لخدمة كل قطر ولخدمة الفرد، ولخدمة أبنائه في المستقبل (١)».

مرة ثانية يعود مركز دراسات الوحدة العربية لدراسة النظام الاجتماعي العربي الجديد (دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية) وهو جزء من مشروع حول الدول العربية الفقيرة والغنية عام ١٩٨٢ يتولى تنسيقه السيد يس مدير مركز الدراسات السياسية في مؤسسة الأهرام مع جامعة كاليفورنيا بلوس انجلوس. ويحتوي هذا المجلد على ما يقرب من إربعين جدولا إحصائيا ويركز بدرجة أكبر على كل من مصر والسعودية. وجوهر التفاضل والتكامل الجديد، بين مصدري اليد العاملة وبين مستورديها قد ينطوي على أكثر من وجه للتشوه في تطور الهياكل الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي. ومع هذا كله فإن هذا الاعتماد العربي المتبادل الجديد هو نسيج صنعته أيادي الملايين من العاملين، وملايين أخرى من الذين يعولونهم على جانبي خط الثروة في الوطن العربي. إنه ارتباط متبادل عجلت بمولده حرب تشرين ١٩٧٣. إن الاغنياء من حيث الثروة على صعيد الوطن العربي الكبير هم فقراء في كل شيء آخر تقريبا. في القوى العاملة والتطور الاجتماعي وتنويع القاعدة الاقتصادية والقدرات العسكرية، ومن ناحية اخرى هناك بعض البلدان المتوسطة بل والفقيرة (مصر مثلا) تملك برغم تواضع ثروتها، وبرغ قسوة مشاكلها الاقتصادية، مزيدا من امكانات قوة العمل، والتكوينات الاجتماعية والاقتصادية، وسبل التنويع، الاقتصادي والقدرات العسكرية. هذه التشوهات ينبثق عنها نظام عربي بمصادر التوتر السافر والمحتمل. لقد تغاضت قطاعات رئيسية من المجتمع العربي عن حقها في المشاركة السياسية ومطالبتها بها رغم كون هذه المشاركة عنصرا مهما من عناصر التنمية. لقد كان التغاضي المؤقت نتيجة الاعتقاد بأن بعضا من النظم الحاكمة كان مشغولا في مهام رئيسية كبرى في بناء الدولة الحديثة، والسعي نحو تحقيق الوحدة العربية وتأكيد الاستقلال الاقتصادي والسياسي والأخذ بأسباب التصنيع وإرساء قواعد العدالة الاجتماعية وبناء الجيوش. والخلاصة أن

---

(١) اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، ص ٣٣٨/ ٣٣٩.

النظام الاجتماعي الجديد الذي كان النفط هو المحرك الأول له نتجت عنه توترات جديدة، وكشف مدى عجز النخب الحاكمة في الوطن العربي عن معالجة التوترات القديمة والجديدة، وزاد الأمر سوءا أن هذه النخب قد دخلت في غمار صراع داخلي فيما بينها، فأبواق الدعاية التي يتحكم فيها كل بلد، لا تكف عن تعرية البلد الآخر والتشهير بالنخبة الحاكمة فيه. وفي ضوء هذا انتشرت في صفوف القواعد الجماهيرية العربية مشاعر الشك واللامبالاة والمرارة والسخط.

إن المفارقة في هذا كله تتمثل في أن النمو الاقتصادي للوطن العربي قد أدى الى نمو الطبقة الوسطى، والطبقة العمالية، لكن هذا لم يصحبه قدر من العدالة الاجتماعية والديمقراطية السياسية، ومن هنا فإن هذه الطبقات المتنامية، قد يتضاعف استعدادها لتقويض أركان النظام الاجتماعي العربي الراهن من الأساس (١).

ثم عاد مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٨٧ لعقد مؤتمر عن «النظام الاقليمي العربي» حضره ستون مثقفا عربيا من مختلف الأقطار، وأكد نفس النتائج السابقة عن فقدان الاستراتيجية العربية الشاملة للتنمية وتجاهل العدالة الاجتماعية والتحدي الديمقراطي والوصول إلى لغة مشتركة بين الأنظمة العربية بعد أن استولت الثروة على زمام المبادرة في صياغة النظام الجديد للمنطقة.

وهكذا دق المثقفون العرب من الخبراء وأساتذة الجامعات والمفكرين ناقوس الخطر قبل وقوعه بسنوات.

في ضوء هذه الاعتبارات ننظر إلى شعرنا العربي الذي قيل في «أزمة الخليج» ويمكن أن نقسمه إلى عدة أقسام:

أ ـ البكاء والهجاء وهي قصائد انفعالية خالصة.

ب ـ الإدانة وفيها حكم بطبيعة الحال بمعنى أن العقل يتدخل بصورة من الصور.

ج ـ الصمود وهي قصائد المواقف التي تقبل التحدي.

د ـ التحليل وهذا آخر الأقسام ظهورا لانه يخرج عن أدب المناسبات أصلا إلى لون من

---

(١) النظام الاجتماعي العربي الجديد، ص ٢٥٢ ـ ٢٧٤.

التأمل الذي يوصل إلى التحليل من ناحية، والعرض الدرامي من ناحية أخرى ليشكل التجربة الناضجة.

والبكاء قليل كأنما جفت عيوننا من كثرة ما بكينا، وكما يقول نزار قباني «فأيامنا كلها محنة، وتاريخنا كله كربلاء» ولعله الإحساس بأن الموقف ليس موقف بكاء، أو كما يقول أحد الشعراء العرب: «بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي». ففي ٢٧ أغسطس نشر غازي القصيبي قصيدته «بغداد» والكارثة في بدايتها:

سترت وجهي يا بغداد من خجلي ... وصحت قل يا فمي شعرا فلم يقل
أين القصائد غراء مجنحة ... عن الضبا والظبى واليأس والأمل
فأعول الشعر يا بغداد في قلمي ... وأنشد الدمع يا بغداد في مقلي

ويشاركه الدكتور حجر أحمد حجر إحساسه بالفيجعة فيقول في قصيدة نشرتها جريدة الراية بعنوان «الكويت»:

اسم الكويت يثير اليوم أشجاني ... تلك الكويت بلادي موطني الثاني
أبكي عليها وهذا الخطب مزقها ... ولست أنكر أن الخطب أبكاني
هل وحدة العرب «بالرشاش» تصنعها ... ويقتل العرب باسم الوحدة الجاني

وفي ٧/ ١٠/ ١٩٩٠ نشر فاروق جويدة قصيدة في «الأهرام» بعنوان (مرثية ما قبل الغروب) وما دامت مرثية فمن المتوقع أن نجد بكاء:

في أي شيء أمام الله قد عدلوا ... تاريخنا القتل والإرهاب والدجل
نبكي على أمة ماتت عزائمها ... وفوق أشلائها تساقط الهمم
هل ينفع الدمع بعد اليوم في وطن ... من حرقة الدمع ما عادت له مقل؟

وفي الوقت نفسه نشرت الصحف مجموعة أخرى من القصائد لغازي القصيبي وغيره مليئة بالهجاء، الذي يبين أن الموقف ما زال موقفا انفعاليا، لأن رد الفعل المباشر إما أن

يكون بكاء أو سبابا ماد منا لا نقوى على الردع. يقول عبدالرحمن عبدالله الواصل من قصيدة نشرتها جريدة الشرق في ٢٢ اكتوبر ١٩٩٠، وهي قصيدة تصور حلما تحول إلى كابوس ولذلك يلعن الشاعر الشيطان الذي تسبب في هذا الكابوس وأضاع الحلم، وهي حوار بين الشاعر وابنته الصغيرة ولكن نهايتها هجاء انفعالي:

أملت فيك وأمل العرب ... وحلمت حيث سما بي الأدب
فرسمت منك لطفلتي بطلا ... شهما يكاد إلى العلا يثب
أو لست من بالقادسية قد ... حققت نصرا دونه الريب
فحدودنا الشرقية امتنعت ... عن فارس وأصابها الوصب
قالت تؤنبني وما علمت ... أني مصاب مثلها كرب
أبتاه ما قد قلت لي سلفا ... اليوم أعلم أنه كذب
شاهدت بالرائي الكويت غدت ... طللا به الأشباح واللهب
فمساكن منهوبة علنا ... وحرائر تسبى وتغتصب...
فاسمع عويل نسائها ولكم ... هتفت بنصرك أيها الكلب
يا خائنا عد خاسئا فغدا ... ستري بخزي الدهر تنسحب

أما غازي القصيبي ففجيعته بلا حدود، ولذلك يكتب ثلاث قصائد[1]، الأولى يحاول فيها أن ينكر ما رأت عينه وما سمعت أذنه ولكن الحقيقة تدهمه، فتبدأ القصيدة هامسة، ثم يشتد وقعها ونبرتها (قولي له بغداد):

قولي له: «ما زلت عاصمة السنا ... يأوي إلى جفني وحاضرة السنى»
قولي له: «إن أنت خنت فلم أخن ... أو كنت أنت غدرت لم أغدر أنا»..
أرأيت يا بغداد لصك مجرما ... متكبرا متجبرا متفرعنا
هو دمل التاريخ لم يعبر على ... يوم به إلا ذوى وتعفنا
صبى على الوثن الذليل من اللظى ... ما يمسح الوثن الذليل من الدنا

(١) أحاسيس اللظى جدة ـ ١٩٩٠

والثانية (ونحن فهد) يتوازن فيها التحدي والهجاء:

أجل نحن الحجاز ونحن نجد ... هنا مجد لنا وهناك مجد
ونحن عسير مطلبها عسير ... ودون جبالها برق ورعد
ونحن الشاطىء الشرقي بحر ... وأصداف وأسياف وحشد
قذى تكريت يلعنك اليتامى ... فيرجف بالصدى لحد ولحد
وتزعم أنك القرشي جدا ... خسئت فما لهذا العار جد

أما الثالثة (شرف الشبيبة) فهي مهداة من شاعر كهل إلى آلاف المتطوعين للدفاع عن الكويت.

حي الشباب كتائبا وطلائعا ... يتدفقون بنادقا ومدافعا
عذري وفي الخمسين عذر للفتى ... أني وراءكم أسوق زوابعا
وأصك سفاح العراق بكلمة ... لم تتخذ خوفا الحمام براقعا
بصقت عليه وزلزلته ومزقت ... عن وجهه ذاك القناع الخادعا

وتتوالى ألفاظ الهجاء عند عبدالرحمن المعاودة وعلي بن سعود آل ثاني ومحمد ابن خليفة العطية ومحيى محمود وسواهم، معجمنا العربي مليء بهذه الألفاظ، فالنظام العراقي ملتقط من المستنقع ومن أهل النذالة ومن أراذل أمتنا وهو سفيه رديء الأصل جاهل خسيس، وكلب الشر إلى آخر هذا المعجم. ومن الطبيعي أن نستمع إلى هذا اللون من الطرف الآخر، فهو اكثر الألوان وضوحاً.

ثم نرى القسم الثاني، وهو الإدانة، ولغازي القصيبي قصيدتان وثالثة لتوفيق الفيل. والملاحظ أن كل شعر غازي القصيبي في هذه المحنة التزم عمود الشعر وابتعد عن الشعر الحر، ومن الواضح أن الإدانة تعقب البكاء والسباب، لكنها هي الاخرى مرحلة قريبة من الحدث، هي رد فعل للحدث، لكنها رد فعل هادىء، ولذلك غلب عليها التساؤل، وخطاب الجماهير أصلح له هذا اللون الذي تعودنا أن نسمعه في

المحافل لكثافة أنغامه من ناحية، وغلبة النبرة الخطابية من ناحية أخرى، يقول القصيبي في (مرثية فارس سابق):

عجبا كيف اتخذناك صديقا؟ وحسبناك أخا برا شقيقا
واقتسمنا كسرة الخبز معا وكتبنا بالدما عهدا وثيقا
جيشنا كنت أجب يا جيشنا كيف ضيعت إلى القدس طريقا؟

والقصيدة الثانية عنوانها (يا أبا فيصل) وهي من نفس النغم الموسيقي (الرمل):

يا أخا المليون جندي أما يستحي المليون من ذبح مئين؟
يا أخا المليون جندي أما عدت من طهران عود الصاغرين؟
فيم هذي الحرب يا مشعلها ولم الأهوال من عشر سنين
يا أخا المليون جندي ألا قدتهم للمسجد الأقصى الحزين
أو لم يأتك من أخباره أنه في قبضة القيد رهين؟

وهكذا صنع توفيق الفيل في تساؤلاته الحائرة، وان كان لقصيدته نغمها الخاص (البسيط):

أيان يا ليل عن وادي ترتحل زلت بك الرجل أم تاهت بك السبل
يا أيها الليل هل تاهت مرابعنا وهل يمثل فينا (الذئب والحمل)؟
قالوا عرفنا طريق القدس نسلكه فهل مع الفجر ضلوا؟ ليتهم سألوا
سلوا المساجد هل هدوا مآذنها وروعوا جمعها يا بئس ما فعلوا
يا أيها الوثن الباغي بقوته هل ما تزال شعوب ربها هبل
ألا تزال بسوس بين أظهركم في عرض بادية ترغو بها الإبل
هذي هي القدس قد ديست كرامتها فنفذ العهد أو فليبطل الدجل

وهناك مجموعة أخرى من قصائد الإدانة اتخذت الشعر الحر شكلا لها، ولكن الواقع أنها برغم تفاوت تواريخها من أغسطس إلى نوفمبر، يبدو فيها التأمل ومحاولة التحليل للموقف ورؤية الشاعر.

كتب حامد طاهر وأحمد سويلم وصلاح أحمد ابراهيم وممدوح عزوز وكمال عرفات وسواهم وكل قصيدة لها مذاقها الخاص، فقصيدة حامد طاهر (الأحضان العربية) تسخر من كل الأحضان العربية التي يلقى بها بعضنا بعضا، بينما يخفي ما في الصدر، ولذلك كان «الجراد العربي» الزاحف، صورة للحقد الذي في الصدور أكثر فما هي صورة للغدر المفاجيء. ولكن بعض الشعراء الآخرين مثل «ممدوح عزوز» يتناولون القضية برؤية مختلفة، فرأس النظام في بغداد «تترى يتخفى بزي العروبة» ولذلك ذبح العروبة ليصنع لنفسه أمجادا شخصية:

أمس كان العراق حبيبي،
كنت فداء لعينيه، كان العراق
كنت أعشقه أملا عربيا،
وكنا نذوب معا في عناق
شرعة الله تجمعنا أخوين،
دما يتوحد، لا يستباح، دما لا يراق
آه ماذا جرى لدعاة العروبة،
ماذا جرى كي يخون الرفاق؟
كنت أحسبهم ذات يوم حماتي،
إذا هم غزاتي.
لو دفعت جنودك صوب فلسطين
حررت شبرا من القدس

كنا جميعا ذهبنا وراءك

واصطفيناك سيد كل السلاطين،

كنا حملناك فوق الجبين،

وفوق النجوم رفعنا لواءك،

كنت في فرحة النصر أعطيتك الروح زادا لعينيك

يا فارس العصر، قبلت كفيك، «شلت حذاءك».

لم تغدر بي وأنا في حماك؟

أيها المدعي أنك العربي الذي لا يخون، تخون أخاك؟

هاك خنجرك الآن يقطر مني دما مسلما، فتبت يداك.

سوف تسأل عنه، وتسأل عني، وعن أمة سقتها للهلاك

لم أعماك حقدك فاجتحت في لحظة من جنون،

بلدا كان يعطيك ضوء العيون

لم أطلقت قطعانك الغازية

تحت جنح الظلام

دفعت ذئابك للهاوية

أيها الطاغية

كيف تجهل ما يعرف الطفل في البادية

حرمة الجار، والذود عنه إذا ما استجار

أي إثم جنيت؟ أيها الفزع الجاثم الآن في كل بيت

لم قدت الوحوش الصناديد نحو الكويت؟

تستبيح النساء، تروع أطفاله الآمنين

تشرد شعبا صغيرا، يراك نصيرا

وبين حناياه كنت الرجاء،
غدوت حريقا على الشرفاء.
فواحسرتاه على الرافدين
جاوز الحد نيرون، يختال في كربلاء
يعد الصواريخ والكيمياء
ليصعد فوق ضحاياه يستقبل الشعراء،
ويلهو سعيدا برأس الحسين
أيها التترى الذي يتخفى بزي العروبة
أغرقتنا بالوعود الكذوبة
إنا كفرنا بكل مزاعمك الهتلرية
فارحل الى زمن البربرية
واترك لنا زمنا للوئام، لفجر جديد.
إيه بغداد يا واحة للسلام
سألتك بالله أين الرشيد؟

لقد بدأ الأمل والفجر ليس فقط فجر الكويت، ولكنه فجر جديد ربما للأمة العربية كلها. وهناك قصيدة عنوانها «صمود شعب» بالفاكس إلى صدام، شعر أحمد السقاف:

معذرة يا حضرة الرئيس
يا من يسوق جيشه إلى الكويت
والقدس يعلو كربها في كل بيت
إن خانني الكلام

ففكري المفجوع في ذهول
من أين لي التعبير يا رئيس هل تبقى ما يصح أن يقال . . .
انظر إلى جزيرة العرب
وأنشر خريطة الخليج
تجد كويتنا ليست من العراق
وليس بينها وبينكم شقاق
كانت لكم في الحرب أقوى من سند
وما لها نعم المدد
فما الذي غيركم
وما الذي سيركم
لتسحقوا معاني الإخاء
وتنسفوا ما قد صنعنا من بناء
فجيعة والله يا رئيس
صبرا ـ رجاء ـ أيها المشردون
في مصر أو لندن أو جنيف
وفي بلاد المغرب ،
وتحت كل كوكب
يا أيها المبعثرون في الخليج
صبرا فإن الفجر يقترب
وكل شيء راجع كما نحب
لن يهزم الغزو عزائم الرجال
ولن يضيع في شفاهنا السؤال

أتسلب الأوطان باجتياح؟ ويعبد المخلوق بالسلاح؟
هيهات نرضى أن نبارك الخضوع ، فالله وحده له الخشوع .

وهكذا صنع مبارك بن سيف في قصيدته «سارة» شهيدة الكويت ، وعندما يقول : «الفجر آت يا كويت الفجر آت» أشعر أنه يحدو القافلة حتى لا تهن عزائمها . وسعاد الصباح لها أكثر من قصيدة «سيرحل المغول» و«سوف نبقى واقفين» . ولكن سعاد الصباح هنا غير سعاد الصباح التي عرفناها في ديوانها الأخير وفي المهرجانات الادبية .

سعاد الصباح التي عرفناها شاعرة الحب ، وهي هنا تحاول أن تكون شاعرة المقاومة ، لكنها تبدأ حماسية ثم ترق ، مثلما حدث في قصيدتها «سيرحل المغول» (٢٠ سبتمبر ١٩٩٠) :

(سيرحل المغول ، ويرجع البحر إلى مكانه ، ويرجع الشعب الكويتي إلى عنوانه ، وترجع الشطآن والأمواج والحقول ، وتشرق الشمس بكل بيت ، وترجع الكويت للكويت) ثم ترق فتقول : (سوف نظل دائما وراءهم نقذفهم بالنار والبروق والزوابع ، سوف نظل دائما وراءهم ، نضربهم بالغضب الكبير بالقضبان بالأمواس بالفؤوس بالكؤوس ، بالكعوب بالبراقع) وهكذا الشأن في قصيدتها «سوف نبقى واقفين» لندن ١٠/٨/ ١٩٩٠ (سوف نبقى واقفين ، مثل كل الشجر العالي سنبقى واقفين ، سوف نبقى غاضبين ، أبدا لن تسرقوا منا النهارا ، أيها الآتون في الفجر على دبابة ، من رأى دبابة تجري حوارا؟) لكنها مرة ثانية ترق ، فتقول : (يا الذي أهديته الماء وأهداني الصحارى ، يا الذي أحرق أسراب العصافير وما قدم للريش اعتذارا) ورأيتها تلقى قصيدتها هذه وتتوقف عند الذي لم يقدم للريش اعتذارا ، والبعض يصفق ، فعجبت ، ولم أتهم ذوقي ولا اتهمت ذوق الناس .

إنها تختلف عن مطولتها إلى «جمال عبدالناصر» ومطولتها إلى «وردة البحر» تقصد الكويت فهما من القصائد التي بقيت وتبقى تتردد لأن قضية الإنسان العربي تعيش فيها .

ففي قصيدة «وردة البحر» تقول : (كويت كويت ، أحبك رغم حراب المغول ورغم

جيوش التتر، احبك حين تكون السماء مطرزة بالرعود، ومثقوبة بالشرر، فكيف تصيرين أجمل عند اشتداد الخطر؟ كويت كويت، لقد قرر العالم العربي اغتيال الكلام، وقرر أيضا، إبادة كل الطيور الجميلة، كل الحمام، ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام. ونحن طيور مثقفة لا تطيق غسيل الدماغ وكسر العظام. ونحن حروف مقاتلة سوف تهزم بالشعر كل عصور الظلام، ويسعدني أن تظل بلادي ملاذ العصافير من كل جنس، وبيت المغنين والشعراء، ويسعدني أن يكون تراب بلادي مزار البنفسج والشهداء، وسقفا لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء).

وفي قصيدة «إلى جمال عبدالناصر» تقول: «يا ناصر العظيم أين أنت أين أنت، بعدك لا شعر ولا نثر ولا فكر ولا كتاب، بعدك نام السيف في قرابه واستنسر الذباب. يا ناصر العظيم هل تقرأ في منفاك أخبار الوطن؟ فبعضه مغتصب وبعضه مؤجر وبعضه مقطع وبعضه مرقع وبعضه مطبع وبعضه منغلق وبعضه منفتح وبعضه مسالم وبعضه مستسلم، وبعضه ليس له سقف ولا أبواب، يا ناصر العظيم لا تسأل عن الأعراب، فإنهم قد اتقنوا صناعة السباب، وواصلوا الحوار بالظفر وبالأنياب، وحاصروا شعوبهم بالنار والحراب»(١).

هاتان المطولتان نشرتا عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف والذي يقرأهما اليوم يشعر أنهما كتبتا الآن لما فيهما من صدق وتحليل للصورة العربية التي لا تتبدل ملامحها وإن تبدل الإطار.

إن كان الشعر الذي قيل في العدوان الثلاثي على سبيل المثال قد سقط من غربال الزمن، لأنه لم يوجد شاعر كبير يتناول هذه الملحمة البطولية، في حين وجد الشاعر الذي سجل «نكسة حزيران» مثل غازي القصيبي ووجد الشاعر الذي سجل نصر اكتوبر كنزار قباني في «ملاحظات في زمن الحب والحرب» ووجد الشاعر الذي رفض كامب ديفيد مثل «أمل دنقل» في قصيدته المشهورة «لا تصالح». وظل نزار قباني منذ مطولته «هوامش على دفتر النكسة» يصور في كل مطولة جديدة الإنسان العربي المنخوب، فنحن نبني العمائر ونهدم الإنسان، رؤوسنا جوفاء فنحن لا نقرأ، أو لا نقرأ

(١) راجع القصيدتين في ديوانها «فتافيت امرأة».

إلا ما يسمح لنا به الرقيب ولا نتكلم إلا بما يملى علينا ولا نتحرك إلا في دائرة مرسومة (لو أحد يمنحني الأمان، لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان، قلت له يا سيدي السلطان، كلابك المفترسات مزقت ردائي، ومخبروك دائما ورائي، كالقدر المحتوم كالقضاء) وفي مطولته «الممثلون والاستجواب» ما يزال يركز على حرية الفكر وحرية التعبير والرأي الآخر، ثم يشتد تمزقه ويعري أخطاءنا علنا نستر عرينا (حرب حزيران انتهت، جرائد الصباح ما تغيرت، والصور العارية النكراء ما تغيرت، والناس يلهثون ضاع كل شيء، لكننا باقون في محطة الإذاعة، خالد يسأل عن أعمامه وأين يقطنون، عنواننا: المخيم التسعون) ثم يكتب مطولته «شعراء الأرض المحتلة» وتراتيله في «القدس» التي أصبحت مدينة الاحزان (صليت حتى ذابت الشموع، ركعت حتى ملني الركوع، سألت عن محمد فيك وعن يسوع، يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء، يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء، يا قدس يا مدينة الشرائع، يا طفلة جميلة محروقة الأصابع، حزينة عيناك يا مدينة البتول، يا واحة ظليلة مر بها الرسول، غدا غدا سيزهو الليمون، وتضحك العيون).

ثم تصدر له «منشورات فدائية على جدران اسرائيل» و«إفادة في محكمة الشعر» «فقراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب» (أنظر كالمشدوه في خريطة العروبة، في كل شبر أعلنت خلافه وحاكم بأمره وخيمة منصوبة، أمشي غريب الوجه في غرناطة، أحتضن الأطفال والأشجار والمآذن المقلوبة، تناثري كالورق اليابس يا قبائل العروبة، اقتتلي واختصمي يا طبعة ثانية من سيرة الأندلس المغلوبة).

إن وظيفة الفن ـ كما يقول ـ هي تسليط الضوء على المشكلة وفتح الستارة عن المأساة وحسب، وإذا صح ذلك وهو لا شك صحيح فما هي المشكلة؟

يقول الشاعر العراقي الراحل احمد الصافي النجفي الذي توفي منذ سنوات قليلة:

والنفط يجري في العراق وما لنا ... ليلا سوى ضوء النجوم سراج
لا تحسب الحجاج مات ولم يعد ... فلكل عصر عندنا حجاج

وتتسع القضية عند نزار فلا يعود الاستبداد مقصورا على بلد وإنما هو سمة الحياة السياسية في الوطن العربي، لذلك يقول من مطولة عنوانها «هولاكو» عام ١٩٨٧:

(كلما فكرت أن أعتزل السلطة ينهاني ضميري، من ترى يحكم بعدي هؤلاء الطيبين؟ من سيشفي بعدي الأعرج والأبرص والأعمى، ومن يحيي عظام الميتين؟ فأنا المخزون في ذاكرة التاريخ والناي وزرق الأغنيات. إرفعوا فوق الميادين تصاويري وغطوني بغيم الكلمات. يا جماهير بلادي: يا جماهير الشعوب العربية، صوروني بوقاري وجلالي وعصاي العسكرية. منذ أن جئت إلى السلطة طفلا ورجال السيرك يلتفون حولي، واحد ينفخ نايا واحد يضرب طبلا، واحد يمسح جوخا واحد يمسح نعلا، إنهم قد علموني أن أرى نفسي كبيرا وأرى الشعب من الشرفة رملا، فاعذروني إن تحولت لهولاكو جديد).

ولذلك «فمرثية ما قبل الغروب» لفاروق جويدة التي نشرها بالأهرام في ٧ أكتوبر ١٩٩٠ ليست جديدة حين يردد:

وأمة في ضلال القهر قد ركعت ... محنية الرأس للسياف تمتثل
يا وصمة العار هزي جزع نخلتنا ... يساقط القهر والإرهاب والدجل

على أن الدكتور أحمد بن محمد الأهدل في قصيدته «كيف استباح لهم صدام غزوهم» يرى الموقف من زاوية أخرى:

يا أمة العرب إن القلب ينفطر ... كيف التمزق في الأرجاء ينتشر
هلا رجعنا لشرع الله ينقذنا ... وتستنير به الدنيا وتزدهر

بينما يرى مانع سعيد العتيبة رأيا ثالثا في قصيدته «ضاع الأمل» بتاريخ ١٩٩٠/٩/٢٧:

بدأوا معركة الكل على الكل إذا زمر هذا طبلا

عزفوا الفتنة لحنا بينهم ... والذي كان حراما حللا
طعنوا قوميتي في عرضها ... وتباكوا برياء دجلا
أكلوا لحم أخيهم ميتا ... جعلوا من دمه كأس الطلا
فتن نشعلها من جهلنا ... وهي لولا الجهل لن تشتعلا

ومن الواضح أن القصيدة الدرامية لم تكتب بعد، ولكن من الواضح أيضا أن هناك ثلاث دوائر قد تداخلت في هذا الطرح الأخير: الاستبداد السياسي وعدم وجود الرأي الآخر، البعد عن تعاليم الإسلام، الجهل. وهذه مجتمعة أو متفرقة كانت وما تزال سبب كوارث الوطن العربي وأمتنا الإسلامية منذ قرن من الزمان، وما زلنا نناقشها كأن الزمن لم يمر، وكأنه قد توقف عند هذه المنطقة من العالم. ومن الحق أننا قد تخلصنا من الاستعمار الأجنبي بعد الحرب العالمية الثانية، وأن البترول قد ظهر ثم أصبح سلعة استراتيجية، ولكن مشاكلنا الأساسية بقيت كما هي.

كانت الأحداث السياسية تجري مسرعة منذ أواخر القرن الماضي، وكان الوعي السياسي قد ظهر محاولا أن يساير تلك الاحداث في العالم الإسلامي. ولم يكن جمال الدين أو محمد عبده أو الكواكبي وحدهم من المثقفين الذين يدرسون أوضاع أمتنا، وإن كانوا أعلاما على الطريق.

ففي كتاب «أم القرى» للكواكبي مؤتمر في مكة يجمع ممثلين من مختلف الأقطار الإسلامية، يرسمون سبل الإصلاح، ويهزون هذا العالم لتسري فيه رعشة الحياة، كان ذلك عام ١٨٩٩، وقد رد الكتاب علل الأمة الإسلامية إلى البعد عن تعاليم الدين، وانحراف علماء الإسلام أولا كان السبيل إلى انحراف التعاليم وفي ذلك يقول: «فهؤلاء قد نالوا بسحرهم نفوذا عظيما أفسدوا به كثيرا في الدين، وجعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم»[1]. ونفس هذه الصيحة كان يرددها محمد عبده في جريدة العروة الوثقى: «فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه يكون برأسه»[2].

وبدأ الرأي العام يشارك بفكره، ورواية «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين» لمحمد كاظم تتناول القضية من خلال أفراد المجتمع العاديين، في روايته التفكك الموجود بين المسلمين، وانتشار البدع والبعد عن تعاليم الدين، فنحن ننشغل بشكليات ألف سنة ولا نمل، والمسلمون في كل مكان يرون جنود الانجليز تضرب

---

(١) أم القرى، ص ٣١.

(٢) تاريخ الشيخ محمد عبده ص ٢٤٥/ ٢٤٧.

الأراضي المصرية تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوسهم.

وكان السؤال هل الإصلاح الديني أولا أم الإصلاح السياسي؟ ويتذاكر الناس الخطاب الذي رفعه مصطفى فاضل إلى الخليفة مصورا فيه حالة المسلمين المؤسفة التي قد تكون باعثا على الثورة واتهامات الأروبيين للإسلام بأنه سبب الضعف، ومطالبا فيه بالحرية وبالدستور، وهو خطاب جريء جرأة تصور حقيقة الوعي السياسي عند طبقة المثقفين: «لكن اسمح يا ذا الجلالة لخادم أخلص لك الولاء أن أقول: لم يبق في قوس صبر المسلمين منزع، فقد بلغ بهم الضر نهايته، وأكلت أجسامهم الآلام، وأمسوا لا قدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا، ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا... إني أعيذ مولاي أن يظن الإكثار من المدارس كافيا لنشر التعليم، فماذا تنفع، المنازل ولا سكان فيها، وما الذي يرجى من مدارس أولادها أبناء ذل خاملون؟... خذ بيد الأمة فجدد شبابها، وامدد إليها يد الدستور تنتشلها من الفوضى. هب الأمة دستورا صحيح الجسم رحيب الصدر خصيب التربة، وحفه بالأمان، وخطه بما يضمن الإخلاص في إنفاذه، والأمانة في الجري عليه، وبما يصونه من العبث به مدى الأيام... أرى المنافقين أو الجاهلين من ذوي الرأي فينا يسارعون إلى الاستفادة حتى من كلمة الدستور. يقولون لجلالتكم: الدستور يصير الملك آلة لا روح فيها، يسلبه اختياره وينزع عنه شعاره، وللأمة: الدستور يريد المسلمين على ترك ما عز لديهم: دينهم ولباسهم وما ألفوا. أولئك قوم ماكرون، أو هم قوم جاهلون. مولاي: انبذ مشورتهم، أمتي: خل عنك سعايتهم، ما قيد الدستور غير الهوى، وما نزع من الملك إلا حرية الخطأ في سياسة الرعية، وإلا اختيار الشر في حكمها. إنه يكفل الدين ويصون الملك، ويحفظ الأموال على أهلها، وينزل السكينة في قلوب الأمة، ويصير المرء حرا كريما».

وكان كتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبي الذي صدر عام ١٩٩٠ أجرأ ما كتب في الدعوة إلى الحرية ومحاربة الاستبداد وبيان أثره السيىء في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية «فالاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه أي الأخلاق، وأما العبادات منه، فلا يمسها لأنها تلائمه في الأكثر، ولهذا تبقى الأديان في

الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة . . . والاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والخداع والنفاق والتذلل وإماتة النفس ويتيح من ذلك أن يربي الناس على هذه الخصال، يربون أنعاما للمستبدين، فهم محرومون من كل الملذات الحقيقية كلذة العلم وتعليمه والمجد والحماية والإثراء والبذل وإحراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب إلى غير ذلك من الملذات الروحية، أما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت وإلا فمزابل للنباتات، ومنحصرة في استفراغهم شهواتهم كأن أجسامهم خلقت دملا وظيفتها توليد الصديد ودفعه، والعرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد. الاستبداد يجعل الإنسان فاقدا حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه، مختل الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم أنهم مثله قد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . . إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لا تسأل قط عن الحرية وقد تنقم على المستبد، ولكن طلبا للانتقام من شخصه، لا طلبا للخلاص من الاستبداد فستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع . . . إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم» .(١)

وهكذا نرى أن الكواكبي عاد بعد هذه الجولة إلى أصل البلاء وهو الجهل، لأن التعليم والتوعية كفيلان بنقاش علماء الدين في وجهات نظرهم وقديما قال عمر بن الخطاب: أصابت امرأة واخطأ عمر حين ناقشته في المهور، بل إن الثقافة كفيلة بأن تجعل المسلم يفهم دينه فهما صحيحا فلا يضيع مئات السنين في نقاش قضايا جزئية. والوعي الثقافي هو الذي يدفع الأمة إلى رفض الاستبداد، والإصرار على وجود الرأي الآخر، لأن الحاكم مهما كان مخلصا هو إنسان يمكن أن يخطىء، وخطأ الحاكم يصيب الأمة كلها.

مرة أخرى عدنا إلى العلم والجهل، فنسبة الأمية في الوطن العربي خمسون في المائة، ومعنى هذا أننا محونا خلال قرن من الزمان ثلث أمية الأمة وسوف نعبر إلى القرن الحادي والعشرين نحمل على كاهلنا وصمة الأمية وهي تعني تخلفا في التنمية بكل فروعها.

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٨٠ وما بعدها.

لقد استمعت في إحدى المحاضرات عن «الجيوبولوتيكا في الشرق الأوسط» للدكتور محمد رياض لآراء الباحثين الذين يقومون بدراسات عن مراكز القوة المستقبلية في الكرة الأرضية، فلم يلتفت أحد منهم إلى الوطن العربي ولا إلى الأمة الإسلامية، وإن كانوا قد ذكروا أندونيسيا في آسيا ونيجيريا في افريقيا في مجال الاحتمالات ومن الواضح أن الأساس هنا هو الرصيد السكاني والثروة البترولية. فلا أمل للوطن العربي إلا في وحدته لأننا في عصر التكتلات الكبيرة، فالوطن العربي يملك الرصيد السكاني، والكفاءات البشرية، والثروة البترولية، والأراضي الزراعية، وقاعدة صناعية. إن التنمية الشاملة يمكن أن تقوم على أساس إعادة النظر في برامج التعليم لتكوين العقلية المفكرة بدلا من العقلية الحافظة وإعادة النظر في برامج محو الأمية البطيء الحركة. وإعادة النظر في مساهمة الحرية السياسية والرأي الآخر، لتكوين سياج يمنع حرية الخطأ، خطأ الفرد الذي يدمر المجموع، وهي قضية تطرح الآن جهرا بعد أن كانت تطرح سرا، وفي دراسة السوق العربية المشتركة على غرار السوق الأوروبية المشتركة، التي سوف توحد أوروبا بعد عام، حتى يتراجع الحديث عن دول الثروة ودول الثورة ما دامت هناك مشروعات مشتركة لصالح الوطن كله، تمهيدا لوحدة تهيىء لها المناهج الدراسية ووسائل الإعلام ما دامت قناعات المثقفين يقينية، من أجل المستقبل، ومن أجل صالح الأمة كلها. وتستطيع الجامعة العربية أن تقوم بدور هام في رسم خريطة هذا المستقبل.

إن الشعر في النهاية يمنحنا قناعة فنية وجدانية تتكامل مع القناعة العقلية لتتوحد التجارب فتكون أكثر ديمومة لأن الإنسان عقل وقلب، يفكر ويشعر ويغذي الفكر الشعور، كما يمهد الشعور للقناعة الفكرية، وبعبارة أخرى فإن الفن له أسلوبه في التأثير وهو لا يقل عن منطق العقل في الإقناع.

المراجـــع

١ـ اتجاهات الرأي العام نحو مسألة الوحدة	
سعد الدين ابراهيم	بيروت ـ ١٩٨١
٢ـ النظام الاجتماعي العربي الجديد	
سعد الدين ابراهيم	بيروت ـ ١٩٨٢
٣ـ أم القرى الكواكبي القاهرة ـ ١٣١٦	
٤ـ تاريخ الشيخ محمد عبده، محمد رشيد رضا	القاهرة ـ ١٩٣١
٥ـ طبائع الاستبداد الكواكبي	القاهرة ـ الطبعة الاولى
٦ـ في الميزان الجديد محمد مندور	القاهرة ـ الطبعة الثانية
٧ـ أحاسيس اللظى (مجموعة شعرية في أزمة الخليج)	جدة ـ ١٩٩٠
٨ـ ديوان المتنبي	القاهرة ـ ١٩٨٠
٩ـ ديوان بدر شاك السياب	بيروت ـ ١٩٧١
١٠ـ فتافت امرأة	بغداد ـ ١٩٨٦
١١ـ دوريات (الأهرام ـ الراية ـ الشرق)	